احياء العلوم وازدهارها

في عصر الدولة العلوية

بقلم حضرة العلامة مؤرخ المغرب مولاي عبد الرحمن بن زيدان
نقيب العائلة المالكة

ان للدولة العلوية الشريفة الاثر البالغ في دور الحياة العلمية وازدهارها بعد ما ظل المغرب يتأرجح زمناً طويلا بين التقلب والاستقرار والنور والظلمة والعلم والجهل ، وان من يلقي نظرة على التاريخ يدرك بالبديهة ما لهذه الدولة الشريفة من الطابع العلمي الخاص والفضل في نشر العلم واحياء رسومه وما لملوكها الاكرمين من الشغف والاعتناء بالعلم والعلماء وشمولهم لهم بكامل الرعاية وجزيل العطاء .

ناهيك بما تواتر في هذا الباب عن السلطان الجليل أبي العز المولى الرشيد ، فقد كان يحضر دروس العلماء بكلية القرويين ويحضهم على بث العلم ونشره ويناقشهم في دقائق المسائل ويشجعهم على ذلك بوافر العطايا فتنافس العلماء والمتعلمون واقبلوا على التعلم والتعليم فكانت النهضة العلمية وافرة ، ولذلك قال أبو علي اليوسي في رسالته للسلطان المولى اسماعيل بعد ان ذكر من رفع منار العلم من الملوك ووقع الفتور فيما بعده : « ثم جاء المولى الرشيد فأعلى مناره ، وأوضح نهاره ، واكرم العلماء اكراماً لم يعهد ، واعطاهم ما لا يعد ، ولاسيما بمدينة فاس ففضح من قبله ، واتعب من بعده ، ولو طالت مدته لجاءته علماء كل بلدة . » ومن آثاره التالدة في ذلك مدرسة الشراطين بفاس فقد اسسها على شكل بديع لدراسة العلم وسكنى طلابه بها وجعل فيها طبقات ثلاثاً بعضها فوق بعض تشتمل تلك الطبقات على مائتي بيت واثنين وثلاثين بيتاً وقبة للصلاة ، وكان ابتداء بنائها اوائل شعبان عام الف وواحد وثمانين وانتهاء العمل فيها كان في الدولة الاسماعيلية عام تسعة وثمانين والف ، وتاريخ اكمال بنائها ذكره سيوطي زمانه أبو زيد عبد الرحمن الفاسي في آخر شطر من قطعة شعرية مطلعها :

انظر لبهجة بيت الله يا رائي ... وسرح الجفن بين ارجاء
تخالها جنة تزهى مزخرفة ... بطيب الزهر من انفاس قراء

فالمدرسة في عصر هذا العلم كانت تعتبر بمنزلة بيت الله الذي يجب أن يرفع ويهتم بشأنه كل الاهتمام رحمة الله عليه ومن آثاره العلمية ايضاً تأسيس الخزانة العلمية بالجانب الجنوبي من الجامع الاعظم بفاس حسبما ذلك منقوش باحرف بارزة بأعلى الرفوف التي توضع بها الكتب وتحبيس نفائس الكتب عليها لينتفع بها من فيه رغبة في الاطلاع والانتفاع ، وهو الذي اسس ايضاً نزهة الطلبة الجاري العمل بها كل سنة الى الآن بفاس زمن الربيع وذلك انه لما فتك بابن مشعل واحتوى على ما كان لديه من الذخائر جعل لمن كان في معيته من الطلبة نزهة فاخرة وقد كانوا نحو الخمسمائة ، ومن يومئذ اتخذت عادة سنوية مدة حياته وبعد موته .

وقد اقتفى آثاره في ذلك صنوه السلطان أبو النصر المولى اسماعيل فازداد العلم في عهده انتشاراً وازدهاراً ، وكان قدس سره يستدعي للسمر معه اعيان العلماء ومشاهير الكتاب ففي جمادى الاولى عام الف ومائة استدعى العلماء من فاس لحضور ختم الامام أبي عبد الله المجاصي لتفسير القرآن الكريم وكان الختم في بيته الخاص من قصره العامر وبه نصب المنبر للفقيه المذكور وبعد الفراغ من درس الختم افيض على الضيوف فاخر مختلف الاطعمة وكان قدس سره هو المتولي بنفسه لصب الماء على ايدي ضيوفه الكرام ، وهو الذي تولى تفريق الجوائز فيهم بيده قال الضعيف : «وكان ذلك من مشاهده الجميلة ومصانعه الجليلة نفعه الله بأجر ذلك » وناهيك بذلك كله غاية في

الاهتمام بالعلم والعلماء واظهار كمال شفوف منصبه وبذلك اينعت اغصان جنة العلوم والمعارف وصلحت ثمارها وتفتحت في الايالة المغربية اكمام ازهارها بعد الذبول .

قال في الظل الوريف في السمط السابع : « حدثنا غير واحد من اشياخنا قال كنا في زمن الشبيبة نطلب العلم ونسأل عن مسائله خصوصاً علم المنطق فلا نجد من يتقن مسائله على صورتها ولا نلقي من تضلع به بل كانت الارجوزة المسماة بالسلم لا يعرفها غير رجل أو رجلين فلما مهد الله لهذه الدولة الاكناف ، واسمى قدرها واناف ، تدفقت على الناس العلوم ودانت صعاب الفنون حتى عاد صغار الطلبة يعرفون فنوناً عديدة ، ويكون لهم فيها عارضة مديدة ، وقد تخرج في هذه الدولة السعيدة جماعة من الاعلام لهم القدم الراسخ في العلم واليد الطولى في الاتقان ، والفوا تئاليف حسنة ... » وفي التقاط الدرر : « وكانت ايام مولانا اسماعيل ايام امن وعافية للرائح والغادي ، والحاضر والبادي ، فكثرت العمارة في كل موضع واخمدت الشرور وتتابع الرخاء وكثر العلماء والصلحاء وشمخ ملكه وطلع سعده » وفي سنا المهتدي : « حوت الخزانة الاسماعيلية من التصانيف ، وجمعت من انواع الدفاتر واسماء التئاليف ، ما لم تحوه خزانة بغداد . » وقال في روضة التعريف ومن عادته ان يسرد كل يوم فصلا من كتابه الى ان يختمه ويبتدئ كتاباً آخر الى ان قال: وله من المحاضرات مع كتابه والمباسطة في القطع الادبية ما يبخس زهر الرياض ، ويزري بفتور الحدق المراض ، من ذلك انه خرج يوماً وخلفه جارية وسيمة حاملة لسيفه فاستنزل قرائح الكتاب في وصفها فقال في ذلك خاتمة اهل الادب عبد الحق السحيمي :

حملت سيوف الهند وهي غنية عن حملها ببواتر الاجفان
حسب الفتاة جلالة ومهابة عن الجمال وهيبة السلطان

وقد حفظ لنا التاريخ انه كان ينتقي من اقطار ايالته الخطاطين المتقنين لنسخ الكتب القيمة ويجري عليهم الجرايات الضافية ولهم محل خاص بنسخ الكتب بأفنية القصر يغاديهم ويراوحهم فيه كل يوم ويفيض عليهم سجال العطايا ويمنحهم البلاد الهامة والدور الانيقة » .

ثم اقتفاه ولده السلطان المولى عبد الله ومن آثاره العلمية الفائقة الادبية اصدار امره العالي باحياء المجموعة التي جمعها وزير والده محمد بن الحسن اليحمدي المحتوية على عشرة اجزاء حوت من درر العلم وفرائده ما لم يحوه غيرها وقد صدر كل جزء منها بترجمة واحد من العشرة المبشرين بالجنة رضي الله عنهم كما صرح فيها بأن الآمر باحيائها هو هذا الملك النبيل ، ومن آثاره أيضاً تحبيسه نفائس من الكتب العلمية على كلية القرويين وغيرها .

ثم ولده السلطان سيدي محمد بن عبد الله فقد استكمل العلم في دولته نصابه ، اذ سهل لطلابه أسبابه ، وفتح لهم أبوابه ، ورفع عنهم بالبذل أستاره ومزق حجابه ، ومن آثار نهضته العلمية حضه العلماء على نشر العلم وبثه بالتدريس والتاليف وبث روح المنافسة بينهم في ذلك فأمر بشرح مشارق الانوار للامام الصغاني فشرح منها الشيخ التاودي ابن سودة الثلث الاول وشرح الشيخ عبد القادر بوخريص الثلث الثاني في مجلد ضخم وشرح الثلث الاخير الشيخ ادريس العراقي وادركته المنية قبل اتمامه فأمر المترجم ولده ابا محمد عبد الله باكماله واخراجه من مبيضته فامتثل .

وهذا السلطان هو أول من وضع نظام العدلية وتنظيم الدروس في كلية القرويين ، ففي عام ١٢٠٣ اصدر منشوراً بما ذكر للعلامة الشيخ التاودي بفاس ملخصه بعد افتتاحه :

ليعلم الواقف على هذه الفصول المذكورة في هذا الكتاب اننا نامر باتباعها والاقتصار عليها ولا يتعداها الى

ما سواها : الفصل الاول في أحكام القضاة فان القاضي الذي ظهر في أحكامه جور أو زور أو ما يقرب من ذلك من الفتاوي الواهية فان الفقهاء يجتمعون عليه ويعزلونه عن خطة القضاء ولا يحكم على أحد أبدا ، الفصل الثاني في أئمة المساجد فكل امام لم يرضه اهل الفضل والدين من أهل حومته يعزلونه في الحين ويأتون بغيره ممن يرضون امامته ، الفصل الثالث في المدرسين في مساجد فاس فانا أمرنا أن لا يدرسوا الا كتاب الله تعالى بتفسيره ومن كتب الاحاديث المساند والكتب المستخرجة منها والبخاري ومسلماً وغيرها من الكتب الصحاح ومن كتب الفقه المدونه والبيان والتحصيل ومقدمة ابن رشد والجواهر لابن شاس والنوادر والرسالة لابن ابي زيد وغير ذلك من كتب الاقدمين ، ومن أراد تدريس مختصر خليل فانما يدرسه بشرح بهرام الكبير والمواق والحطاب والاجهوري والخرشي الكبير لا غير فهذه الشروح الخمسة بها يدرس خليل مقصوراً عليها وفيها كفاية وما عداها من الشروح كلها ينبذ ولا يدرس به ، ونص على الذي يقرأ من كتب السيرة الاكتفا للكلاعي وسيرة ابن سيد الناس اليعمري ، ومن كتب النحو التسهيل والالفية وغيرهما من الكتب المفيدة ، ومن كتب البيان الايضاح والمطول وكتب الصرف وديوان الشعراء الست ومقامات الحريري والقاموس ولسان العرب وأمثالها مما يعين على فهم كلام العرب لانها وسيلة الى فهم كتب الله وحديث رسوله ، وأمر بالاقتصار في قراءة علم الكلام على عقيدة ابن أبي زيد ، ثم قال في آخر المنشور وكذلك الفقهاء الذين يقرءون الاسطرلاب وعلم الحساب فياخذون حظهم من الاحباس لما في ذلك من المنفعة العظيمة والفائدة الكبيرة لاوقات الصلاة والميراث وعلى هذا يكون العمل ان شاء الله ونامر الفقيه السيد التاودي ان يكون عمله على ما في هذا الكناش ، وبعد أن قرر ما ذكر وغيره مما يرجع للنظامات المذكورة مما هو مبسوط في اتحاف إعلام الناس وجه بذلك لعلماء مصر وكتب لهم كتابا نص الغرض منه : نريد منكم أن تطالعوا مسائل اخرى مذكورة في هذا الدفتر يمنته قد أمرنا قضاة المغرب أن يحكموا بها فما كان منها على صواب اثبتوه واكتبوا عليه بخطوط ايديكم وما كان منها على خطأ اكتبوا عليه أيضاً بخطوط أيديكم في الدفتر المذكور لنرجع عنها ووجهوا لنا الكناش بعينه وعليه خطوط أيديكم .

ونأهيك في هذا الباب أنه كان يباسط العلماء والادباء ويداعبهم كانه واحد منهم وحسبك دليلا أن أبا الفيض حمدون بن الحاج السلمي كان يوماً في مجلسه الشريف مع جماعة من العلماء الملازمين لحضرته سنة ١١٩٩ فاديرت عليهم كئوس الأتاي وكان اسم الوصيف الذي يديرها ميمونا فناول اولا الكأس للسلطان وكان عن اليسار فقال له إذن يقول السيد حمدون :

صددت الكاس يا ميمون عنا وكان الكاس مجراها اليمينا

فقال السيد حمدون نعم وأزيد عليه :

ولم تعمل بحكم الشرع فينا كما جلاه خير المرسلينا
رسول الله فيما صح عنه من انه قال ناولها يمينا

الخ القصيدة التي لا نطيل بنشرها ، وهذا لعمري غاية التنزل والميل للعلم واهله قدس الله روحه في عليين .

ثم ولده السلطان المولى سليمان فقد تزايدت نهضة العلوم في عصره واينعت اغصانها المثمرة لشدة اعتنائه وشغفه الزائد بالعلم وذويه فقد كان قدس سره يزور جامع القرويين كل آونة ويتردد على مجالس دروس الصدور من محققيه ويحضر فيها ويباحث ويبدي آراءه قبولا ورداً ويحل عويص المشكلات ويزيل الستار عن غوامض المعضلات ، وكان يزور شيوخ العلم وقادته بدورهم ويلبي دعوة من

استدعاه منهم ويعود مرضاهم ويحضر جنائزهم فقد زار المحدث ابا زكرياء يحي بن الطالب الشفشاوني إمام الضريح الادريسي كما زار الشيخ التاودي شيخ الجماعة بفاس وعاد أبا محمد عبد القادر بن شقرون في مرضه الذي توفي به وحضر جنازته وحشره بيده في قبره بالضريح الادريسي وما خرج حتى سوى التراب على قبره وعاد قاضي الجماعة بفاس ابا العباس أحمد بن التاودي بن سودة واستدعاه العلامة الشيخ حمدون بن الحاج لداره فأجاب دعوته ووصله بالف مثقال حسبما صرح بما ذكر غير واحد ، وكان يحضر اختام العلماء في جملة الطلبة اجلالا لقادات العلم وتعظيما لحملة الشريعة ففي رابع وعشري شعبان عام ١٢١١ حضر ختم شيخه ابي المواهب الطيب بن عبد المجيد بن كيران لتفسير القرآن الكريم بزاوية الشيخ قاسم بن رحمون الشهيرة بفاس ، ومن اعتنائه بالعلم وأهله أن أبا العلاء ادريس البدراوي إمام القراء في عصره نظم حقيقة الروم والاشمام في أبيات ثلاث ذكرها في توضيحه ونصها :

ضممت لاشمام لتفعل مثله
فضنت وجاءت في القراءة بالأصل
فرمت باخفاء لكي تدرك المنى
فقالت أشيخ الذكر فاقرأه بالوصل
فان وقوفي يقتل الصب حسنه
فقلت لها قفي فقد لذ لي قتلي

وعندما اطلع عليها السلطان المترجم أمر له بجائزة قدرها مائة مثقال لكل بيت ولما أكمل محمد الجريري شرحه على قافية ابن الونان الموسومة بالشمقمقية وقدمه هدية للمترجم أجازه عليه باثنتى عشرة مائة مثقال فضة ، وكان كثير التشجيع على تعاطي العلم ونشره بالتأليف والتدريس في مختلف الفنون وبالاخص علم القراآت والحديث اقتداء بابيه وصالح سلفه ، فكم أبرزت من تآليف بأمره وجليت من النفائس والفرائد في عصره جزاه الله عن أعماله .

ثم السلطان المولى عبد الرحمن بن هشام الذي لا يقل اعتناء بالعلم وذويه عن سابقيه الاعاظم وهو ثاني المؤسسين لنظام التدريس بالقرويين في الجملة يدل لذلك ظهير اصدره في الموضوع لقاضي فاس اذ ذاك الشريف مولاي عبد الهادي ننشره لاهميته :

ولد عمنا الارضى الفقيه القاضي مولاي عبد الهادي وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله وبعد فقد بلغنا توافر طلبة العلم على العادة ، وجدهم في الطلب غير أنه قل التحصيل والافادة ، وذلك لمخالفة الفقهاء في اقرائهم عادة الشيوخ ، واعراضهم عما ينتج التحصيل والرسوخ ، فان الفقيه يبقى في سلكة سيدي خليل نحو العشر سنين وفي الالفية العامين والثلاثة لكثرة ما يجلب من الاقوال الشاذة ، والمعاني الغريبة الفاذة ، وكثرة التشعيب بالاعتراضات وردها ، ومناقشة الالفاظ وعدها ، ويخلط على المتعلم حتى لا يدري الصحيح من السقيم ، ولا المنتج من العقيم ، وفي ذلك تضييع الاعمار التي هي انفس المتاجر بلا فائدة ، وتعمير الاوقات التي يرتجى نفعها بلا عائدة ، فتجد الطالب يرحل في طلب العلم من بلاده ، ويتغرب عن اهله واولاده ، ويقيم المدة المتطاولة لا يحصل مع كثرة دءوبه على طائل ، ولا يقف على محصول ولا حاصل ، فترى الفقهاء يكثرون على المبتدي من نقول الحواشي والاعتراضات ، وينوعون الاقوال والعبارات ، حتى لا يدري ما يمسك ولاي سبيل يسلك ، ويقوم من مجلس الدرس اجهل مما كان ، ولا يجد زيادة مع بلوغه في نفسه الامكان ، وهذا يؤدي الى ضياع العلم الذي هو ملاك الدين ، ويحمل على عموم الجهل في العالمين ، وما هكذا يفعل اهل الافادة والتحرير ، الذين يحرصون على نفع طلبة العلم رغبة فيما عند الله من الاجر الكبير فقد كانوا يسهلون لهم طرق العلم واستفادته ، ويرتكبون ما يقرب تحصيل العلم وزيادته ، ويتنزلون لعقول الطلبة على قدر افهامهم ، ويحتالون على حصول الفهم والعلم للمتعلمين بلطيف عبارة كلامهم ، حتى يحصل اللبيب على مراده في أقرب أوان ، ولا يضيع عمره سبهللا من غير تحصيل ولا عرفان ، اذ كان مقصودهم في ذلك الله ونشر العلم للعمل لا التفصح والتمشدق الذي

يحصل معه الخلل والملل، ولا ينجح منه لذي أرب أمل، وهذا من الامر الذي يجب التنبيه عليه ويتأكد في جنب أرباب المناصب الجنوح اليه، اذ في الحديث المدين النصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولأيمة المؤمنين وعامتهم، فبوصول كتابنا هذا اليك اجمع المدرسين وارشدهم لما فيه المنفعة العامة، والفائدة التامة، وهو الاقتصار في التقرير على حل كلام المؤلفين وافهامه للسامعين المتعلمين، مع التنبيه على ما فيه من خطأ وتحريف من غير اكثار هذر، ولا تشغيب بترداد اعتراضات وطرر، اذ المقصود هو حصول الفهم والافادة، والمناقشة في الالفاظ انما هو لغو وزيادة، وليست لاهل التحرير بعادة وما تقدم قراءة النحو والبيان والمعقول، الا لتحصل الملكة التي يتوصل بها الى فهم المنقول، فلا ينبغي في الفقه مناقشة الالفاظ، ولا نقل كل ما سوده الحفاظ، بل يبغي الاقتصار على بسط المسائل وفصولها، وتقريبها للفهم بتقرير اصولها، فلا يجاوز الفقيه في سلكة خليل العام وان طال فني عامين، ولا يجاوز في الالفية الشهر والشهرين، كما كان يفعل ذلك جهابذة العلم من نقاده بل كانوا يسردون خليلاً في اربعين يوماً والالفية في أقل من ذلك ويحصل الطلبة في ذلك على علوم جمة، ومسائل مهمة، لا يحصلونها في هذا التماطل والتطويل، وعمارة الاوقات بما ليس عليه تعويل، ولينظروا في سيرة من قبلهم في التدريس والالقاء، ويسلكون ما هو اقرب للتحصيل، وامس بتسهيل الفهم والاقراء، فبهداهم فليقتدوا، وبأقوالهم فليهتدوا، ليستفيدوا ويفيدوا، ويبدءوا ويعيدوا، ويحصل الطلبة الغرباء في ذلك على مرادهم ويدركون ما يسر الله على قدر استعدادهم والله ولي التوفيق، ومن جملة الامور الموجبة لقصور فهم المتعلمين وعدم نفعهم تقصير مجلس الالقاء وخفته فلا يجاوز من أطال من الفقهاء الساعة مع ان من رحل للطلب من بلده ونيته تحصيل العلم فيستغرق الاوقات ويعرض عن الراحة واللذات، ولا يكون له غرض الا في درس أو نظر، ليحصل في مطلوبه على الوطر، ففي الحديث منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب دنيا فينبغي على ما هو الاليق بحالهم من الدءوب والاطالة، ومواصلة الطلب وترك البطالة، والسلام وفي ١٢ محرم الحرام فاتح ١٢٦١.

(البقية على الصفحة ١٧)

صناعة رجال جامع القرويين

في التاليف واشهر مصنفاتهم

بقلم فضيلة العلامة سيدي عباس بن ابراهيم قاضي مراكش

للمصنفين في صناعة التاليف طريقتان الطريقة الاولى طريقة السبك في جمع النقول ثم بسطها بأوجز عبارة والطف اشارة وهي وان كانت اتعب واشق ادق نظراً واحق، الطريقة الثانية طريقة التناسب أي ترتيب ما يراد من النقول بعينها ونظمها في سلك اساليب المطالب المرادة بزيادة شيء عليها أو نقصه منها اما بعزو أو دونه على ما هو المعهود في ذلك وبعبارة اخرى للمؤلفين طريقتان في التصنيف الاولى المحافظة على كلام من تقدمه بنقله بنصه والثانية ان لا يعتبر من نصوص من قبله الا المعنى الذي يسبك قالبه ليكون كلامه نمطاً واحداً والاولى اسلم من الخطا وابعد من الزلل وعلى الطريقة الاولى سلك رجال القرويين في مصنفاتهم حتى عابهم بذلك بعض المتأخرين ونقل كلامه الامام أبو العباس المقري في روضة الاقحوان من ازهار الرياض قال لقد وقفت في بعض التعاليق لاحد المتأخرين على كلام في صناعة التأليف رأيت أن اجلب جميعه بما فيه من ذكر بلاغة القاضي عياض رحمه الله ونصه وقد كان للقدماء رضي الله عنهم في تدريس المدونة اصطلاحان اصطلاح عراقي واصطلاح قروي فأهل العراق جعلوا في مصطلحهم مسائل المدونة كالاساس وبنوا عليها فصول المذهب بالادلة والقياس ولم يعرجوا على الكتاب بتصحيح الروايات ومناقشة الالفاظ ودأبهم القصد الى افراد المسائل وتحرير الدلائل على رسم الجدليين وأهل النظر من الاصوليين واما الاصطلاح القروي فهو البحث عن الفاظ الكتاب وتحقيق ما احتوت عليه مواطن الابواب وتصحيح الروايات وبيان فصول الاحتمالات